الدرس الرابع : مُهِمّة الجامِعَة

زُرتُ كُلِّيَّةَ الآدابِ بِجامِعَةِ عَيْنِ شَمْس ، وعَلِمْتُ أنّ عَدَدَ طُلّابِها الآنَ هو ١٦ ألفَ طالِبٍ وطالِبةٍ! وتَذَكَّرْتُ كُلِّيَّةَ الآدابِ في أوائِلِ الثّلاثيناتِ عِنْدَما كانَ عَدَدُ طَلَبَتِها يَزيدُ قَليلاً عنْ مائةٍ، وعِنْدما كانَ عَدَدُ الطّالِباتِ لا يَزيدُ عَنْ خَمْسِ طالِباتٍ، أَذْكُرُ مِنْهُنَّ أمينة السعيد وسُهَيْر القَلَماوِيّ!

وكنتُ أيّامَها طالِباً في كليةِ الحقوقِ، وكنتُ أَرَى أيّامَها الدكتورَ منصور فهمي أُسْتاذَ علمِ الجمالِ يَمْشِي في الكليةِ باحِثاً عن تِلْميذِهِ الوحيدِ حتّى يَعْثُرَ عليْهِ في الحوشِ، ويأْخُذَهُ من يدِهِ لِيَذْهَبَ بِهِ إلى غُرْفَةِ المُحاضَرَةِ !

وكان أجملَ[1] ما في الدراسة العلاقةُ الشخصيةُ بَيْنَ الأستاذِ وطَلَبَتِهِ. كان الأستاذُ يعْرِفُ اسْمَ كُلِّ طالبٍ. وكان الأساتذةُ يَدْعُونَ الطَلَبَةَ لِتَناوُلِ الشايِ في بُيوتِهِم، وكانتْ هٰذِهِ الصلةُ الرّوحِيَّةُ هي التي تَصْنَعُ الحياةَ الجامِعِيَّةَ الحقيقيَّةَ .. والآنَ لا يَسْتَطيعُ أيُّ أُسْتاذٍ أنْ يَعْرِفَ طلبتَهُ، فهو يتَحَدَّثُ بالميكْروفون! ولا بُدَّ أنْ يَسْكُنَ الأستاذُ في قَصْرٍ لِيَسْتَطيعَ أنْ يَتَّسِعَ لِعَدَدِ طَلَبَةِ الفَصْلِ!

وأَخْطَرُ مِن هٰذا أنَّ مكتباتِ الكليّاتِ لَيْسَ فيها العددُ الكافِي مِنَ الكُتُبِ لِتَخْدِمَ هٰذا العددَ الهائلَ مِنَ الطَلَبَةِ..

وبعضُ عباقِرَةِ هٰذِهِ الأيّامِ يُفَضِّلونَ الكَمَّ على الكَيْفِ .. فَهُمْ يُفَضِّلونَ كُلِّيَّةً تُخَرِّجُ ألفَ مُتَخَرِّجٍ عادِيٍّ على كُلِّيَّةٍ تُخَرِّجُ العقادَ وطٰهٰ حُسَيْن وأحمد أمين وثلاثةً من العباقِرةِ مَثَلاً! ولٰكِنْ مِنَ المُمْكِنِ أنْ نَجْعَلَ الجامِعَةَ تُخَرِّجُ الأعدادَ وتُخَرِّجُ العَبْقَرِيّاتِ في نَفْسِ الوَقْتِ إذا شَجَّعْنا النُبوغَ، وأَوْفَدْنا البُعْثاتِ، وَحَصَلْنا عَلى أَحْدَثِ المَراجِعِ، وجَعَلْنا الجامِعَةَ هي مركزَ حُرِّيَّةِ الفِكْرِ في البَلَدِ، تَخْرُجُ مِنها الأَفْكارُ الجديدةُ، وتُناقَشُ فيها الآراءُ الحديثةُ، ونُقيمُ فيها نَدَواتِ السِّياسَةِ والأَدَبِ والاجْتِماعِ.

إنّ مَهَمَّةَ الجامِعةِ أنْ تُخْرِجَ كلَّ عامٍ ألفَ كتابٍ على الأقلِّ، في كلِّ عِلْمٍ وفنٍّ وصِناعةٍ. وأنْ تَكونَ هٰذِهِ الكتبُ في مُتَناوَلِ الناسِ. ولَيْستْ مَهَمَّةُ[4] الجامعةِ إخْراجَ[2] حَمَلَةِ شهاداتٍ يوَزَّعونَ على المكاتِبِ والمصالِحِ ، ولا يَجِدُون مَقاعِدَ يَجْلِسونَ فَوْقَها ، ولا مَكاتِبَ يَعْمَلونَ فيها!

مَهَمَّةُ الجامعةِ أنْ تَقودَ التقدُّمَ في البلدِ ، منها تَخْرُجُ[3] النظرياتُ الجديدةُ والاخْتِراعاتُ المُبْتَكَرَةُ والاكْتِشافاتُ الحديثةُ..

إنّ حركةَ مصطفى كامل خَرَجَتْ من مدرسةِ الحقوق ، وثورةُ ١٩١٩ خرجتْ من الأزْهَر، وثورةُ الصناعةِ المصريةِ خَرَجَتْ من كليةِ التجارةِ ، وثورةُ ١٩٣٦ خرجتْ من كليةِ الطِبِّ!

ونحنُ نُؤْمِنُ أنَّ النَهْضَةَ الجديدةَ لا بُدَّ أنْ تَخْرُجَ مِن كلِّ جامعةٍ وكليةٍ في كلِ بلدٍ عربيٍّ!

من كتاب «الـ ٢٠٠ فكرة» لمصطفى أمين، ص. ١٢٣-١٢٤
العصر الحديث للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٧

(1) eller omvendt: العلاقة ... أجمل
(2) eller omvendt: إخراج ... مهمة
(3) både mansūb og marfūc
gir god mening